Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 3, No. 9, Sep. 2017

Published on Web 01/09/2017

المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجلد الثالث ـ العدد التاسع، سبتمبر 2017م

التراث الخطابي الغربي

تأليف د. رفيع حبيب

ترجمة د. أحمد محمد الشلابي

المقدمة:

كلمة ((خطابة)) مشتقة من الكلمة اليونانية rhetor وتعني " المتحدث " و كانت تشير أصلا إلى فن الحديث إلى الجمهور.

و تبنى هذا الفن لتقنيات التي بها كان متكلم ما يستطيع أن يؤلف و يرتب حديثا يكون مقنعا من خلال ما فيه من فكرة و عاطفة و حركة لجذب انتباه الجمهور. و طوال الألفيتين الماضيتين، ظلت الخطابة مهمة في العديد من المجالات: المجال السياسي، حيث ولد هذا الفن أصلا؛ و المجال الفلسفي الذي وضع الخطابة في مرتبة أدنى من المنطق و الميتافيزيقا؛ و المجال الديني الذي وظف فيه الخطابة لغاياته الخاصة؛ و مجال التعليم حيث لعبت الخطابة دورا مركزيا امتد إلى وقتنا الحاضر في الفصول الدراسية؛ و أيضا مجال النقد الأدبي الذي استمر في الاعتماد على الخطابة من ناحية التركيز على اللغة و المجاز و الجمهور.

الخطابة الإغريقية:

تأسست الخطابة في اليونان القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد. وتدين بتطورها المبكر إلى السفسطائيين وأرسطو، ثم لاحقا في أيام الرومان، إلى كاتو و سيشرون و كينتليان. و الخطابة الكلاسيكية، و حتى تطورها إلى أيام سيشرون، كان فيها خمسة أجزاء أو "وظائف ":الابتكار، الترتيب، الأسلوب، و الذاكرة، و الإلقاء. 'فالابتكار' heuresis أو inventio كان يشير إلى محتوى الخطاب: بيان الموضوع المطروح ووسائل الإقناع التي تضمنت الأدلة المباشرة وبيان لشخصية المتكلم و الحجة المنطقية و اعتبار مشاعر الجمهور، وكذلك المقدمات الأخلاقية و السياسية للخطابة. أما الوظيفة الثانية، فهي الترتيب dispositio / taxis أي ترتيب الخطاب في نسق محدد. يبدأ الخطاب " بمقدمة " لاستثارة رغبة و تعاطف الجمهور؛ بعدها يأتي " السرد " ذو الخلفية المعينة و الحقائق ذات الصلة؛ ثم " الدليل " الذي يتضمن الحجج المنطقية و تفنيد الاعتراضات أو الحجج المضادة، ثم "الخاتمة " التي يمكن أن تكثف الحجة الرئيسية و تتوسل أكثر إلى مشاعر الجمهور. أما الوظيفة الثالثة، وهي الأسلوب المسمى (lexis / elocution) فيتكون

عرفيا من عنصرين : المعجم (أو اختيار الكلمات) و التوليف الذي يشير إلى عناصر مختلفة في تركيب الجملة مثل البناء و الإيقاع و استعمال المحسنات البلاغية.

و الوظائف الثلاث كانت مألوفة للحديث العام و القطع المكتوبة. وكانت هناك وظيفتان أخريان حددهما أرسطو غريبتان عن الكلام و هما: الذاكرة التي تشير إلى حفظ الحديث لإلقائه شفويا؛ والإلقاء الذي كان ينطوي على التحكم في الصوت و الإشارة. و كان يتم تقييم الأسلوب وفق أربعة عناصر متعارف عليها، وقد صاغها تلميذ أرسطو ثيوفراستوس وهي: الصحة (صحة القواعد و الاستعمال اللغوي)؛ والوضوح؛ و تزيين الكلام ((استعمال المجازات و المحسنات))؛ و التناسب. وتم تصنيف الأساليب إلى ثلاثة أنوع: الرفيع و المتوسط و العادي.

ووفق أحد الآثار، فإن فن الخطابة تأسس رسميا في عام 476 ق.م، من قبل المواطن السيراكوزي، كوراكس، الذي قام تلميذه تيسياس بنقل دروسه إلى وطنه [1]. لقد كانت الخطابة جزءا مكملا للعملية السياسية في العهد اليوناني القديم خاصة في أثينا و سيراكوزة القرن الخامس قبل الميلاد. كان للخطابة روابط عميقة و ربما عضوية بالنظام الديموقراطي، لأنه يفترض مسبقا توافر الحرية لعدد من وجهات النظر ليتم التعبير عنها في خطاب عام. وكانت القدرة على الحديث بشكل جاذب يمكن أن تحدد مستقبل الدولة و العائلة و الفرد. و على الخطابة كان حفظ التوازن بين الحياة او الموت، الحرب أو السلم، الإعمار أو الدمار، و الحرية أو العبودية.

وأخذا في الحسبان أن الخطابة كانت مهمة جدا في أثينا القديمة، ظهرت مجموعة من الأساتذة المختصين كانوا يسمون السفسطائيين،(من كلمة Sophos و تعني الحكيم)، وقد الذين تولوا تدريس هذا الفن في المحاكم و المرافعات و المنتديات السياسية و التعقيبات و المناظرات الفلسفية. و من خلال تأثيرها، كان للخطابة دور مركزي في التعليم اليوناني. وكان أبرز السفسطائيين تأثيرا هو بروتاغوراس و غورجياس و انتيفون و ليسياس و إسوكراتيس. كان الشعار الشهير لبروتاغوراس هو " أن الانسان هو مقياس الأشياء جميعا ". وكان هذا الاعتقاد جوهريا و إنسانيا علمانيا و فكرة فرادنية. و قد اعتقد أيضا أن في كل محاججة جانبان قد يكون كلاهما عقلانيا على قدم المساواة. و من هنا قام بتشجيع النسبية، و مذهب الشك، و مذهب اللاأدرية. و كما كان غورجياس (485؟ – 380) ق.م شخصا آخر متميزا بين السفسطائيين، و أكد على ضرورة أن تستعين الخطابة بالمحسنات البلاغية في الشعر. و مثل بروتاغوراس، قام غورجياس لا بإلحاق فكرة الحقيقة وجعلها مرتبطة بتقديم وجهة نظر معينة و بمخاطبة شعور جمهور معين، و تميز إسوكراتس (436 – 338) ق.م بالتركيز

على الخطابة بوصفها أساس للتعليم. و كان يرى أن الغرض الأساسي للخطابة سياسي، تدريب السياسيين على تطوير قيم ووحدة الثقافة اليونانية.

رأي أفلاطون في الخطابة:

كان للخطابة أهمية في الحياة الأثينية العامة، و لذلك قد لا يبدو مستغربا أنها كانت عرضة لإساءة الاستخدام. لقد ربىَّ السفسطائيون في طلابهم القدرة على المحاججة في جانبي كل قضية بل في كافة جوانبها؛ وعليه اتهموا بتدريب الناس على " جعل أسوأ القضايا تبدو أفضل " و بذلك ضحوا بالحقيقة و الجانب الخلقي و العدالة من أجل المصلحة الشخصية. وقد قام أرستوفان بالسخرية من السفسطائيين في مسرحيته الكوميدية ' السحب'، لكن التحدي الأكثر خطورة و الضرر الدائم قام به أفلاطون خاصة في محاوراته بعنوان غورجياس و فيدروس.

ونقد أفلاطون للخطابة في غورجياس (من خلال قناع سقراط) وُضع على أساس تعارض حاد بين مجالات الفلسفة و الخطابة. ويذهب سقراط إلى أن هناك نوعان من الإقناع: أحدهما يقدم الاقتناع دون الفهم، و الثاني هوما يقدم معرفة. و يؤكد سقراط أن الخطابة تؤدي إلى اقتناع الناس لكن دون تعليمهم بأن هذا حق و هذا باطل [2]. ويذهب إلى أن الخطيب شخص غير خبير يقوم بأقناع أناس آخرين غير خبراء. إنه لا يحتاج مطلقا لأن يعرف الحقائق الواقعية لموقف ما؛ وهو لا يحتاج إلى خبرة بل كل ما يحتاجه هو الحيلة المقنعة (Gorgias459 a–c). و انتقاد سقراط تحوطه فكرة أفلاطون عن الحقيقة بوصفها رأيا إنسانيا متساميا. و في قاعات المحاكم، يقول سقراط، تعتمد الخطابة على إنتاج عدد كبير من الشواهد البارزة؛ لكن هذه الحجة أو التفنيد لا قيمة لها في سياق الحقيقة. و في الواقع، كما يرى سقراط، الخطيب و السياسي يضطران إلى التملق لبنية السلطة القائمة ورأي الأغلبية (Gorgias, 481–482c).

أرسطو و التطور اللاحق للخطابة:

كتاب أرسطو المتميز 'الخطابة' يؤكد أن الخطابة هي النظير للحجة الجدلية أو المنطقية. وفي حين يستخدم الجدل القيمة المنطقية تستخدم الخطابة القياس الإضماري، وهو قياس تكون مقدمتاه غير مؤكدتين أو ضروريتين لكنها محتملتان.[3] وعلى عكس أفلاطون، يذهب أرسطو إلى أن الخطابة مهارة مفيدة، باختصار لأنها يمكن أن تطور قضايا الحقيقة والعدالة (Rhet,.1355b). إضافة إلى ذلك، فنحن نحتاج إلى المقدرة على محاججة أوضاع متعارضة حتى يكون لدينا فهم أكمل للمسألة و يمكننا دحض الحجج النظرية غير العادلة (Rhet.,1355a).

و مرة أخرى على عكس أفلاطون، يذهب أرسطو إلى أن الخطابة ليست معنية بأي مجال أحادي. ففي حين أن كل نوع من الفنون الأخرى يسعى إلى الإقناع و الاشتغال في مجاله الخاص. تشتغل البلاغة على عنصر الإقناع في كل المجالات (Rhet.,1355b) ويقسم أرسطو الدليل، وهو أهم مكون من مكونات الخطابة، إلى ثلاثة أنواع أساسية، ذلك أن هذه الأنواع تتعلق بـ:

1. شخصية المتكلم، الذي يجب أن يبني مصداقيته
2. الجمهور، الذي يتوجب جذبه إلى حالة معينة من المشاعر
3. الطبيعة المقنعة للموضوع نفسه (Rhet.,1336a).

وحتى يتمكن المرء من مختلف البراهين، عليه أن يتمكن من القياس، وعليه أن يمتلك الفهم العلمي للشخصية و الفضيلة، وعليه أيضا أن يتفهم كل عاطفة وكيف يمكن استجلابها. وبالنظر إلى أن الخطابة تتطلب تمكنا كبيرا، يعتبر أرسطو أنها تتفرع عن الجدل و الأخلاق و يذهب في الواقع إلى أن الخطابة " يمكن أن تصنف على أنها مجال سياسي " (Rhet., 1356a).

ويميز أرسطو بين ثلاثة أنواع من الخطابة. النوع الأول هو الخطابة التشاورية التي مجالها علم السياسة، وهي تتعلق بما يقع من أفعال في المستقبل و يتوجب على الدولة القيام بها؛ و الخطابة القضائية التي تكون في مجال المحاكم القانونية، وهي تتعلق بأفعال تمت في الماضي، و تستخدم الادعاء و الدافع في هدفها لتحقيق العدالة؛ أما النوع الأخير من الخطابة فهو الخطابة الاستعراضية التي تركز على الحاضر و تتضمن المدح و الذم في هدفها لإظهار النبل (Rhet.,1358b–1359a) وهناك خصيصة أخرى للأسلوب وهي التناسب، الذي يعني أن كل محتوى يجب أن يتم التعبير عنه بما يناسبه من الطرق. وما يكمل التناسب أيضا هو استخدام العاطفة و تكييف الحديث لطبيعة الجمهور و كذلك التوقيت الزمني، وهو استخدام التعبير المناسب في الزمن المناسب. (Rhet.,1405.a–b) وفي القسم الأخير من كتاب الخطابة، الذي يتعلق بالكتابة، يبين أرسطو أن للحديث أربعة أجزاء المقدمة؛ و العرض أو السرد الرئيسي؛ ودليل ما يدعيه المتكلم الذي يتضمن تفنيد الحجج المقابلة؛ و أخيرا التلخيص الختامي (Rhet.,1414b).

الخطابة الهلينستية:

الثقافة اليونانية الكلاسيكية المبنية على الحاضرة أو الدولة–المدينة انتهت فعليا مع هزيمة الأثنيين على يد فيليب المقدوني في معركة خيرونيا عام 338 ق.م، و بعيد موت أرسطو في 332 ق.م، قام

تلميذه الأسكندر الأكبر، ابن فيليب، بغزو الإمبراطورية الفارسية الفسيحة بأكملها. و يقال أن الفترة الهلينستية قد بدأت مع موت الإسكندر عام 323 ق.م التي تقسمت بعدها امبراطوريته بين جنرالاته الذين كونوا عدة ممالك: البطالمة في مصر (ثم لا حقا في فينيقيا و فلسطين) وسيليوكس في سوريا و بلاد فارس و بلاد الرافدين، و كاساندر في مقدونيا. وعلى الرغم من هذه التقسيمات، انتشرت الثقافة واللغة الإغريقية في أسماء الأقاليم المحتلة. و تميزت هذه الفترة الهلينستية باندماج التراث اليوناني و الشرقي.

كان مكتبة ومتحف الإسكندرية العظيمين في مصر مركزا للمعارف في مجالات العلوم و النقد النصي و التأليف الشعري. و قام العلماء الهلينسيون العاملون هناك بتنظيم أفضل لمحتوى و قواعد الخطابة. والنص الباقي من هذه الفترة هو كتاب " الخطابة و الأسكندر " (مهدى إلى الأسكندر الأكبر) مكتوب باليونانية في القرن الرابع قبل الميلاد. وكان من ضمن الخطباء الإغريق في هذه الفترة تيوفراستوس (370؟– 285ق.م) الذي قد يكون استهل دراسة المحسنات البلاغية و المحسنات الكلامية (Figures of thought) و الذي أسس لفكرة المستويات الثلاثة للأسلوب – الرفيع و الوسيط و العادي. كان أهم علماء الخطابة في تلك الفترة هو هيرماغوراس التمنوسي الذي وقع تحت تأثيره شيشرون و كينتليان و خاصة في مذهبه المتعلق بالثبات (Stasis) الذي يحدد "الوضع" أو "الموقف" نحو موضوع المحك في المحاججة [4].

الخطابة الرومانية:

دخلت الخطابة اليونانية إلى روما في القرن الثاني قبل الميلاد. وقد كان لهيرماغوس تأثيرا عظيما على النصين الرومانيين الرئيسيين في البلاغة و هما كتاب ' خطابة هيرنيوس' و كتاب شيشرون 'عن البديع' (87 ق. م) . ويعد كتاب 'خطابة هيرنيوس' الذي كان ينسب لعدة قرون إلى شيشرون، أول نص قدم شرحا مفصلا لنظام الخمسة أجزاء الذي يعد محوريا في تراث الخطابة الرومانية[5]. و يحدد الكاتب هذه الأجزاء كالآتي: الابتكار وهو اجتراح المادة التي تجعل موقفا معينا مقنعا؛ والترتيب وهو تسلسل المادة؛ والأسلوب وهو تكييف الكلمات و الجمل للمادة المبتكرة؛ والتذكر وهو الاحتفاظ القوي في الذهن بالمحتوى الملقى؛ والإلقاء وهو ما يشير إلى تنظيم الصوت و الملامح و الإيماءات (RH,I.ii 3). و المحاججة الأكثر اكتمالا، كما يخبرنا، هي ما يتوافر فيها خمسة أجزاء: الاقتراح والسبب و الدليل عليه، والتنميق، و الخلاصة، و الخاتمة. غير أن الخاتمة ثلاثية الأجزاء وهي تشمل الملخص والثمرة و نشدان التعاطف.

ويذهب الكاتب إلى أنه يوجد ثلاثة مستويات من الأسلوب: الرفيع أو العالي وهو ما يستعمل ترتيبات مزينة لكلمات مثيرة للإعجاب؛ و الأسلوب المتوسط وهو يستعمل مستوى أقل من الكلمات، وهي كلمات ليست عامية؛ و الأسلوب العادي أو البسيط الذي يستخدم أكثر تعابير الحديث العادي تداولا (RH,IV,viii.11). فكرة الأساليب الثلاثة هذه تبناها نقاد العصور الوسطى الذين رأوا أن المستويات الثلاثة تباعا تنطبق على المسرود بشأن القضاء و المدينة و الريف. و أخيرا، يقدم الكاتب قائمة طويلة بالمحسنات البلاغية " و المحسنات الكلامية ". و النوع الأول تنتجه اللغة المتزينة، و الثاني ينتج عن التميز في الفكرة أو المفهوم نفسه (RH,IV.xii.18). و الكناية تعرَّف بأنها محسِّن تمتح من شيء شديد الشبه بالشيء المقصود، لكنها تستبدله باسم مختلف. إما المجاز المرسل فهو يظهر عندما يفهم الكل من الجزء أو العكس، أو عندما يفهم المفرد من الجمع أو العكس(RH,IV.xxxii.45). و الاستعارة تظهر عند وجود كلمة تنطبق على شيء معين و تنتقل إلى غيره، على أساس وجود تشابه معين؛ إن ذلك يستخدم لخلق الإيضاح و للإيجاز، للتغطية على بذاءة الكلام، للتهويل أو التقليل أو تنميق الكلام، وأخيرا تستعمل الأمثولة بوصفها طريقة للكلام تشير إلى شيء ظاهري بكلماتها لكنها تشير إلى شيء آخر في معناها.

نظرية شيشرون الخطابية:

ماركوس توليوس شيشرون (106–43) ق.م هو أشهر علماء الخطابة الكلاسيكيين. و عندما كان طلبا في روما دخل نظاما تعليميا يركز على الخطابة و التمارين التطبيقية في الكتابة و المحادثة و جدليات القضايا، و المرافعات القضائية و التشريعية، و تدريب الذاكرة، و الإلقاء الأمثل للخطب. وقام بنشر كتابه "عن الابتكار" في أوائل القرن الأول قبل الميلاد. و أتبع ذلك بعدد من النصوص 'عن الخطابة عام 55 ق.م ، و 'بروتس' سنة 46 ق.م، وهو تاريخ الخطابة الرومانية، و 'الخطيب' عام 46 ق.م، و كتاب 'عن التصنيف الأمثل للخطباء ' عام 46 ق.م أيضا، وكذلك كتاب 'عن تقسيمات الخطابة ' 45 ق.م. وفي كتابه 'عن الابتكار' يؤكد شيشرون على الأهمية السياسية للخطابة. ويؤكد أيضا أن مهمة الخطابة هي المساعدة في تطوير المجتمع على أساس العدالة و الخير العام بدلا من القوة البدنية، وعلى هذا النحو يجب على المتحدث أن يمثله الحكمة إلى جانب الفصاحة[6]. ويقسم شيشرون الحديث إلى ستة أجزاء، بداية من التصدير الذي هدفه جعل الجمهور جاهزا بشكل جيد؛ ثم المثل الذي يتكون من أحداث متتابعة، و المحاججة و التفنيد لحج الخصم، ثم ينتهي إلى خاتمة الخطابة التي تتضمن هي الأخرى ثلاثة أجزاء: ملخص للنقاط المهمة

في الحديث، و إثارة السخط على الخصم، و إثارة التعاطف مع حالة المتكلم، و قد تتضمن خاتمةُ الخطبة أيضا تشخيصا و التماسا لتعاطف لجنة المحكمين (DI,I.80.100 -105). و يعتبر شيشرون الإلقاء العامل الأسمي في الخطاب الناجح (DI,III.213). و يعرف الخطيب في العموم بأنه شخص يمكنه التعبير عن الأفكار بوضوح إلى " عموم " الجمهور (DI,I.85). و الشيء الأكثر اهتماما في كتاب 'علم الخطابة' هو الطريقة التي يشير بها إلى موضوعين مهمين اثنين: القيمة الثقافية للخطابة و العلاقة بين الخطابة و الفلسفة و الأنواع الأخرى للمعرفة. ويذهب شيشرون إلى أن فن الخطابة قد ازدهر خاصة في الدول التي تمتعت بالحرية و السلام و الاستقرار. إضافة إلى ذلك، هذا الفن فوق ما تم ذكره، يميز الإنسان عن الحيوان؛ إنه هذا الفن الذي جلب الوحدة و الحضارة للإنسانية [7]. كما يأخذ شيشرون موقفا من نقد أفلاطون للخطابة. وفي الوقت الذي يرى فيه أفلاطون الخطابة تركز على الأسلوب و بعيدة عن الفلسفة، يوكد شيشرون أن الخطيب الجيد ينبغي أن يتحدث على أساس من المعرفة و الفهم لموضوعه، و أن الفلسفة و الخطابة يكملان بعضهما البعض.

كينتليان:

من المعروف أن كلمات شيشرون الأخيرة كانت " معي تموت الجمهورية !" و خلفاء شيشرون في الخطابة شاهدوا فعلا موت الجمهورية الرومانية و فرض الحكم الإمبريالي، حيث يملك رجل واحد، هو الإمبراطور، مطلق السلطة. كان هناك لاحقا انتقاص للحريات الشخصية و السياسية، بما في ذلك إمكانية الحديث بحرية. وقد أدى هذا إلى انحدار عام في الخطابة في القرن الأول الميلادي في روما. و مع ذلك، شهدت هذه الفترة ولادة كينتليان الذي كان كتابه 'مؤسسات الخطابة ' أسهاما رئيسيا في نظرية الخطابة و التربية و كذلك النقد الأدبي؛ وقد كان تأثيره واسعا و احتل المرتبة الثانية بعد شيشرون في عصر النهضة، ووصل إلى أنظمتنا التعليمية الحالية.

في هذا الكتاب، مؤسسات الخطابة، يقدم كينتليان برنامجا لإعداد الخطيب منذ الطفولة. وهو يؤكد على ما يبدو أكثر المواقع أصالة في نصه، و هو اعتماد الخطابة على الجانب الأخلاقي: " الخطيب الممتاز... لا يمكن أن يوجد مالم يكن فوق كل شيء رجلا خيرا "[8]. و مثل شيشرون، يعارض كينتليان فصل أفلاطون بين الخطابة و الفلسفة. و جمعُ كينتليان بين هذه النشطات مبني على الجانب الخلقي: الخطيب لا يمكن أن يترك مبادئ السلوك الأخلاقي للفلاسفة لأنه معني على نحو فعال بكونه مواطنا في مختلف مشاريع الدولة، المدنية و القانونية و القضائية و الخاصة و

العامة. ومثل شيشرون، إذن، ينظر كينتليان إلى الحكمة و الفصاحة بوصفها شيئين متجاورين على نحو طبيعي و ضروري. و يذهب كينتليان إلى أنه مجرد أن يتعلم الطفل كيف يقرأ و يكتب يجب عليه بعدها أن يتعلم القواعد(IO,I.ii.31). وهو يحدد مجال القواعد بوصفها شيئا جامعا للجزأين: فن الكلام بصورة الصحيحة و فن تأويل الأدب. كما يذهب إلى أن القطع المختارة للقراءة يجب أن تعرض الخير الخلقي. و في تحليل الشعر يجب تعليم الطالب كيف يقرأ بعمق و أن يحدد أجزاء الكلام و الوزن و العروض و التعرف على الاستعمال الصحيح للألفاظ، ومعرفة مختلف المعاني للكلمة الواحدة، و التعرف على كل أنواع الاستعارة و المحسنات البلاغية و المحسنات الكلامية، وأن يتم تزويده بالوقائع التاريخية ذات الصلة، و فوق كل ذلك، فهم القيمة التي يتم فيها انتظام كامل العمل(IO,I.viii.5–18). وعموما فإن القصص التي يرويها الشعراء يجب أن تستخدم في زيادة معرفة التلميذ بدل أن يتم اعتبارها ببساطة نماذج من الفصاحة (IO,I.ix.2–6).

ونقطة كينتليان الأبعد هي أن مدرس الخطابة الذي لديه تلاميذ في عمر تكوين الانطباع يجب أن يمتلك أخلاقا نموذجية:

" دعوه [المعلم] يتبنى، بعدها أو فوق كل شيء، مشاعر الابوين تجاه تلاميذه... دعوه ألا يملك الرذائل في نفسه و ألا يتسامح فيها مع الآخرين. لتكن قوته غير صارمة ولا تكون عشرته بالغة السهولة حتى لا يكرهه أحد ولا يستهله أحد آخر... لتكن إجاباته سريعة على من يسأله، ويسأل هو من لا يسأله... وفي تعديل ما يتطلب التصحيح، ليكن لينا غير قاس، و قبل كل شيء، عليه ألا يوبخ... ليتكلم كثيرا كل يوم بنفسه، من أجل تنوير تلاميذه " (IO,II.ii.4–8). و أفضل الأساتذة، يضيف كينتليان، هم أناس الحس المرهف الذين يعرفون كيف يكيِّفون تدريسهم وفق مستويات تلاميذهم: وفق كل شيء، تمكنهم من تخصصهم سوف يمكنهم من تحقيق فضيلة الوضوح في تدريسهم، التي هي " الفضيلة الرئيسية للفصاحة ". و كلما كان المعلم أقل قدرة كان أكثر غموضا و ادعاء (IO,II.iii,2–9). ويجب على المعلم أن يكون عمليا قابلا للتكيف، رحيما و معتدلا، و أن يحتفظ بشعور جلد في واجبه تجاه بلده. وفي العموم، يمكن القول إن إسهام كينتليان الأكبر في المجالات النظرية التربوية و الخطابة يكمن في تأكيده على أن جميع جوانب هذه المجالات إنما يقع تحت الأخلاق.

تاريخ الخطابة اللاحق: نظرة عامة:

بعد الحرب الأهلية التي هزم فيها أكتافيوس أنتوني في معركة أكتيوم، أصبح أكتافيوس امبراطورا لكامل العالم الروماني في 27 ق.م، وقد استمر حكمه حتى عام 14 م. انهارت الجمهورية إلى الأبد و حكم روما أباطرة حتى سقوطها عام 410 م. خلال هذه الفترة، تم تقييد حرية الكلام – وفنن الخطابة – بشدة: ركز الخطباء على الأسلوب و الالقاء و تزيين الكلام أكثر من تركيزهم على جوهره.

ويشار إلى هذه الفترة مادة باسم المرحلة السفسطائية الثانية (27 ق.م إلى 410 م) وقد سميت على جيل جديد من السفسطائيين الذين كانوا يدافعون عن العودة إلى لغة وأسلوب أثينا الكلاسيكية. لم تنتج السفسطائية الثانية مؤلفات متميزة في الخطابة، إذا استثنينا كتاب لونجيوس المسمى 'عن الجليل في الكتابة'. ونظرا لأن الخطابة كانت قد تجردت من مهامها الاجتماعية والسياسية، فقد فقدت بذلك دورها في الحياة العامة، وأصبحت تركز شيئا فشيئا على تقليد النماذج القديمة وتنميط قواعد الإنشاء الأدبي، التي كان ينظر إليها في العصور الوسطى على أنها جزء من مجال الخطابة.

ومع نهاية القرن الرابع أصبح للمسيحية وضعا متميزا في الإمبراطورية الرومانية. وقد بدأ ذلك بسلسلة من المراسيم أصدرها الإمبراطور قسطنطين عام 313م، سمح فيها بالتسامح مع المسيحية؛ أما الإمبراطور تيودوسيوس الأول فقد أصدر مرسوما عام 380 جاعلا فيه المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية. نتج عن ذلك رد فعل ضد استخدام المناهج الكلاسيكية والمقررات الوثنية في التعليم. وفي العام 426 م أصدر أغسطين كتابه 'عن المذهب المسيحي' الذي ذهب فيه إلى أهمية الخطابة كوسيلة لشرح ونشر الرسالة المسيحية. وأخيرا، تبنت الكنيسة خطابة شيشرون كدليل للدعاة المسيحيين.

ومن خلال العصور الوسطى كانت الخطابة أحد أجزاء الفنون الحرة "الثلاثية" مع المكونين الآخرين وهما النحو والمنطق. كانت البلاغة معنية أصلا بأدوات إقناع الجمهور، في حين كان تركز النحو واقعا على قواعد الصحة اللغوية، وكان المنطق يركز على المحاجة القوية. وكانت الحدود بين الخطابة والشعرية غائمة نوعا ما. عموما، أخذت البلاغة في العصور الوسطى مكانا ثانويا بالنسبة لتطور المنطق، خاصة على أيدي اللاهوتيين المدرسيين مثل كوما الأكويني.

في عصر النهضة، التي رجعت إلى المصادر الكلاسيكية، تمتعت الخطابة بإحياء مركزي في المناهج التعليمية. لقد متح إنسانيو عصر النهضة بعمق من تعاليم شيشرون (9)، وكذلك من كتاب

كينتليان المستعاد حديثا وقتها، في تركيزهما على المحتوى وعلى استراتيجيات الابتكار (1049-1048 "RP"). ومع استمرار عصر النهضة، عموما، الخطابة التي هي نفسها قد تم اختزالها إلى الأسلوب- كانت قد أدرجت تحت الشعريات جزئيا بسبب اكتشاف شعريات أرسطو: والاهتمام الخطابي بالجمهور ووسائط المحاجة، والإقناع كانت جميعها قد فقدت. وعلى هذا النحو ماتت الخطابة. أما الابتكار الشاعري فقد احتفظ بالطبع بأهميته لكنه لم يكن مثل الخطابة التقليدية شيئا موجها للجمهور. لقد أصبح بالأحرى خاصا، فعلا تأمليا، تأليفا ما يقوم به الفكر المنعزل في وحدته. المحسنات البلاغية كانت أقل توجها نحو مشاعر الجمهور؛ والإنشاء كان ينظر إليه على أنه نوع من التعبير الذاتي، مؤشرا على نفسية الكاتب، وبدأت دراسته من قبل تخصص علم النفس المحدث ("RP",1049).

هذا النمط الجديد من التفكير حقق تكثيفا جديدا في المذهب الرومانسي، الذي قدم تفسيرا جديدا للخلق الشعري قائم على أساس ملكة الخيالة. كان الرومانيون يمتحون من أفلاطون و لونجينوس، وكانوا يهاجمون بقايا الشعرية والبلاغة الأرسطية التي أذكت جذوة شعريات الكلاسيكية الجديدة. انتشار الثقافة المكتوبة شجع نظرية وممارسة الابتكار والإبداع على أن تتم في عملية معزولة وانفرادية. وبعد عصر النهضة، كان لصعود الاقتصاد البرجوازي وأنماط التفكير في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر إسهام في اضمحلال الخطابة بطرق عدة، أولا عن طريق ازدياد التخصصات حيث أصبح لكل فرع من المعرفة استقلال نسبي، فصار لديه محتواه الخاص ومناهجه الخاصة أيضا. علاوة على ذلك كان لهيمنة الدراسات العقلانية والاختبارية والتجريبية دور في استعمال اللغة استعمالا أكثر حرفية وأكثر مباشرة، على نحو يجرد اللغة من طاقتها المجازية كما عرفته بثراء النصوص الوسيطة. وبحلول نهاية القرن التاسع عشر، وفي الواقع حتى وقتنا الحالي، أصبحت كلمة "الخطابة" مصطلحا مزدرى يشير إلى فراغ المحتوى، والحشو الطنان، والزخرفة اللفظية الزائدة. ومع ذلك وكما سيتضح لاحقا شهدت الخطابة بعض الانتعاش الملحوظ خلال القرن العشرين.

الإرث الخطابي:

في العالم الغربي، لعبت الخطابة دورا محوريا في علم السياسة والقانون؛ وخلال الألفيتين الماضيتين كانت الخطابة محور النظام التعليمي في أوروبا. ولا يزال تأثيرها مشهودا في التعليم متمثلا في السيادة المستمرة لتعليم الإنشاء والكتابة. إن مناهج تدريس الإنشاء قد بدأت تشهد أصداء لأحياء الخطابة في الدراسات الأدبية. وقد أحدثت الخطابة حديثا تأثيرا متجددا على النظرية النقدية والثقافية،

مغطية العديد من التخصصات، خاصة تلك التخصصات من مثل نظرية فعل الكلام المتعلقة بشكل مباشر بطبيعة الاتصال. وامتد تأثير الخطابة في النقد الأدبي والنظرية الأدبية أكثر بكثير من التحليل الأسلوبي للمحسنات البلاغية. والمدخل الخطابي للنص يجب ألا يهتم فقط بمقاصد الكاتب ولكن بكل السمات المتضمنة في النص بوصف ذلك استعمالا إقناعيا للغة: بنية النص كوسيلة للاتصال، وطبيعة واستجابة الجمهور أو القراء، وعلاقة النص بالخطابات الأخرى والسياقات الاجتماعية والسياسية للتفاعل بين الكاتب والنص والقارئ، وأيضا الاهتمام التاريخي بالفروق بين الاستقبال المعاصر لنص ما وظروف الأداء الأصلية لهذا النص، وباختصار، المدخل الخطابي للنص ينظر إلى النص الأدبي ليس بوصفه فعلا معزولا (مجرد تسجيل مثلا للأفكار الذاتية للكاتب) بل بوصفه أداء في سياق اجتماعي معين.

في هذا المعنى العريض، لازالت الخطابة عنصرا مكملا في عدة مناهج للأدب والفلسفة، تمتد من المداخل الماركسية والنسوية مرورا بالمنهج التأويلي إلى نظريات الاستقبال. ودراسة طبيعة اللغة كانت محورية في جانب كبير من مشروع الشكلية، بما في ذلك النقد الجديد New Criticism. غير أن النظريات الشكلية المبكرة، مع الشكلية الجديدة – التي عبرت عنها في بيانات رسمية مثل "القصيدة لا ينبغي أن تعني، بل توجد فقط"، مالت إلى تقويض المنهج الخطابي للأدب بوصفه شكلا فعالا للاتصال، إلى النظر إلى النص الأدبي بوصفه بنية لفظية معزولة.

وأحد الأعلام المرتبطين بالاتجاهات النقدية الجديدة وهو آي.أ. ريتشاردز أصدر كتابا بعنوان 'فلسفة الخطابة' (1936) ميز فيه، تحت التأثير الجزئي لجون لوك، بين الشعر الذي يعتمد على المعاني المتعددة للكلمات والخطابة التي مهمتها الاقناع، وبين الكتابة الإيضاحية حيث معنى كل كلمة يجب أن يكون واضحا وأن تكون اللغة المستعملة محايدة وغير منحازة. ونظرا لاستحالة تجنب تعدد المعاني أو الترادف، يذهب ريتشاردز إلى أن مهمة الخطابة هي دراسة الثراء الدلالي للغة. وإلى حد كبير أفسحت تأملات ريتشاردز المتبصرة الطريق أمام انتشار النظريات الشكلية والنقد الجديد خلال الأربعينات من القرن العشرين. وهناك إحياء لاحق للخطابة أحدثته ردة فعل كيث بيرك إزاء هذه الشكلانيات المعاصرة ودعوته لتجديد المنهج الخطابي للتفسير والشكل الأدبيين. إن كتَّابا مثل ت. إس. إليوت ووين بوث، ميالون إلى التركيز على علاقة الكاتب بالنص، مثلما ورد في مقالة إليوت بعنوان: 'ثلاثة أصوات للشعر'؛ وكتاب نورثروب فراي الذي بعنوان: 'تشريح النقد' (1957) أيضا رفضٌ في نهاية المطاف لأي تفريق حاد بين الاستعمال الأدبي والخطابي للغة التي تستخدم

المحسنات والمجازات، وبين الاستعمال الفلسفي والإيضاحي للغة. وأصحاب نظريات الاستقبال واستجابة القارئ، بما في ذلك آيزر وهولاند وفيش، قاموا بالتركيز على دور وموقف القارئ، وهناك نقاد آخرون مثل بيرك وجاكبسون ولاكان وديريدا وبول دي مان قاموا بإحياء فكرة مجازات خطابية تأسيسية معينة مثل المفارقة والاستعارة والكناية، والبعض يذهب إلى أن هذه المجازات مكملة للغة وعملية الفكر. وعلماء اللغة وعلماء ما بعد البنيوية مثل تودوروف وجينيت وبارث عادة ما قاموا بتكييف التصنيفات الخطابية للمجازات. وهناك منظور خطابي أُقر صراحة في ما يسمى حركة القانون والأدب: فسرديات الادعاء أو الدفاع في غرف المحاكم سوف تستخدم العديد من استراتيجيات الخطابة والأدب. لكن التأثير ليس أحادي الجانب: النصوص الأدبية والنصوص الأخرى يمكن أن تُرى في ضوء استراتيجيات خطابية مخصصة لمرافعات المحاكم. إن الخطباء هم من اجترح كامل ترسانة المحسنات "الأدبية" في حقيقة الأمر. وفي هذا المعنى العريض، إذن، يمكن النظر إلى الخطابة على أنها مكون حتمي من مكونات جميع أنواع الخطاب.

هذا التراث الخطابي في الأدب والتعليم الغربيين واجهه تراث طويل من الفلسفة التي كان ينظر إليها هي نفسها على أنها مخصصة للبحث العقلي عن الحقيقة، وتحديد الحياة الخيرة، والسعادة؛ وباختصار فإن يتار التقاليد الفلسفية الغربية قد جنحت إلى رفض المباحث الخطابية للأسلوب، والعاطفة والتأثير على الجمهور لصالح التركيز على المحتوى. هذا التقليد دشنه فعليا أفلاطون؛ وقد سار عبر المنطق واللاهوت الوسيطيين، هذا فضلا عن الخلافات في العصور الوسطى فيما يتصل بوضع المنطق والنحو والخطابة في النظام التعليمي الثلاثي؛ واستمر ذلك أيضا خلال محاولات عصر النهضة للتأكيد على العناصر الشكلية للشعر، وأيضا خلال المنطق الرامسي (Ramist) في القرن السابع عشر إلى الفلسفة العقلانية والتجريبية في عصر التنوير كما عبر عنها إصرار لوك على أن لغة الفلسفة خالية من المحسنات والمجازات، وامتد ذلك إلى القرن العشرين في التحليل الفلسفي كل من. ج. واي مور وبرتراند رَسَل، وكذلك الوضعية المنطقية ونظرية فعل الكلام ومختلف أفرع السميولوجيا.

ومن المثير للاهتمام أن الانتقاص الفلسفي من الخطابة عادة ما كان يضع الخطابة مع الشعر وعادة ما كان يقوم المدافعون عن الشعر أنفسهم بالاعتراض على الصرامة والوصفية المزعومين للخطابة كما في الرومانسية ورمزية أواخر القرن التاسع عشر والشكلانية المعاصرة. هذه المناكفات تستمر حتى وقتنا الحاضر في النزاع القائم بين الخطابة وأنماط التفلسف الأكثر تحليلا تقليديا وتجريبيا. وفي

مقابل هذه الأخيرة، تحتفظ البلاغة برأيها بأن الحقيقة لا يمكن استخراجها من الاهتمامات العملية والسياسية، لكنها ترتبط ارتباطا جوهريا بالأبنية السياسية السائدة وبنشدان توافق الآراء.

Notes

1. George A. Kennedy, A New History of Classical Rhetoric (Princeton: Princeton
University Press, 1994), p. 34.
2. Plato, Gorgias, trans. Robin Waterfield (New York and Oxford: Oxford University Press, 1994), 455a.
3. Aristotle, The Art of Rhetoric, trans. H. C. Lawson-Tancred (Harmondsworth:
Penguin, 1991), 1355a. Hereafter cited as Rhet.
4. George A. Kennedy, ed., The Cambridge History of Literary Criticism: Volume I:
Classical Criticism (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), p. 198.
Rawson (1997); V.V: Volume V: Romanticism, ed. Marshall Brown (2000).
5. [Cicero] Ad C. Herennium: De ratione dicendi (Rhetorica ad Herennium), trans.
Harry Caplan (Cambridge, MA and London: Harvard University Press/
Heinemann, 1968), I.ii.2. Hereafter cited as RH.
6. Marcus Tullius Cicero, De inventione; De optimo genere oratorum; Topica, trans.
H. M. Hubbell, Loeb Classical Library (Cambridge, MA and London: Harvard
University Press/Heinemann, 1968), I.5. Hereafter cited as DI.
7. Cicero, De oratore, in Cicero on Oratory and Orators, trans. J. S. Watson (Carbondale: Southern Illinois University Press, 1970), I.viii.
8. Quintilian: On the Teaching of Speaking and Writing: Translations from Books
One, Two, and Ten of the Institutio oratoria, ed. James J. Murphy (Carbondale:
Southern Illinois University Press, 1987), p. 6. Hereafter cited as IO.
9. Some of the insights in this section are indebted to the extremely learned article,
“Rhetoric and Poetry,” by Thomas O. Sloane in The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics, ed. Alex Preminger and T. V. F. Brogan (Princeton: Princeton
University Press, 1993). Hereafter cited as “RP.”